بليخانوف ونظرية الانعكاس

تعود نظرية الانعكاس بجذورها إلى تاريخ متقدم زمنيا ، وبالتحديد إلى أفلاطون ومن جاء بعده فقد نظروا إلى الادب باعتباره انعكاسا للمجتمع -1-.فعمل الاديب عند أفلاطون يشبه عمل المرآة ، وما يقدمه الشاعر هو نقل الظواهر والاشياء الموجودة

في المجتمع بطريقى آلية ، واستخدم أرسطو مفهوم المحاكاة حيث ذهب إلى أن الفنون جميعا بصفة عامة تحاكي الواقع.

وفي الحق أن( ماركس ) قد أولى فكرة الانعكاس أهمية قصوى " فهو يرى أن كل نشاط فني هو انعكاس للعمليات الاجتماعية وبصفة خاصة للمصالح والاهتمامات الطبقية ، فالادب تعبير عن المصالح الطبقية والصراع الطبقي ". 2

من المعلوم أن نظرية الانعكاس في تفسيرها للادب نشأة وماهية ووظيفة اتكأت على الفلسفة الواقعية المادية ، هذه الفلسفة التي ترى أن الوجود الاجتماعي أسبق في الظهور من وجود الوعي بل ان أشكال الوجود الاجتماعي هي التي تحدد أشكال الوعي ، وقد استطاعت نظرية الانعكاس أن تقدم مفاهيم جديدة تماما عن نشأة الادب وطبيعته ووظيفته . -3-.

ترى الفلسفة الواقعية المادية أن الواقع المادي ( أي علاقات المجتمع وقوى الانتاج ) وهو ما يسمى بالبناء التحتي يولد وعيا محددا يتمثل في الثقافة والفلسفة والادب والقوانين أو ما يسمى بالبناء الفوقي .

وأن أي تغييرفي البناء التحتي يستدعي تغيرا في البناء الفوقي .والعلاقة بينهما علاقة جدلية تظهر من خلال البنيتين التحتية والفوقية ، فما دام الادب يعتبر مجالا من مجالات البنية الفوقية ، فإنه سيكون محكوما بمقومات البنية التحتية .

مما ينبغي الاشارة إليه أن نظرية الانعكاس تختلف عن النظريات الاخرى في تناولها للظاهرة الادبية ، فهي لا تهتم بزاوية معينة على حساب الزوايا الاحرى كما هو الشأن بالنسبة للنظريات الاخرى . فالملاحظ أن نظرية المحاكاة ركزت على المتلقي ، ونظرية التعبير عنيت بالمبدع ، ونظرية الخلق اهتمت بالعمل الإبداعي . في حين نجد نظرية الانعكاس تتناول الظاهرة الادبية برمتها ، ولا تنظر إليها من زاوية محددة . -4-

تذهب هذه النظرية إلى أن الادب انعكاس للواقع الاجتماعي فهو من حيث طبيعته ينبغي أن يرتبط بالواقع الذي أنتج فيه ، بمعنى أن الادب صورة للواقع الاجتماعي الذي أنتجه أو أنتج فيه .

وإذا كانت نظرية الانعكاس قد استمدت اسمها من المقولة التي تتمثل في أن الادب انعكاس للواقع الاجتماعي ، فإن هذا الانعكاس ليس آليا وإنما هو على قدر كبير من التداخل والتتعقيد .

إن مما يستوجب الذكر في هذا المجال أن أصحاب نظرية الانعكاس يرفضون فكرة الفن الخالص ، والجمال المطلق ، كما يرفضون أن يكون الادب تعبيرا عن الذات الفردية . وهذا ما يراه روادها كبليخانوف زجورج لوكاتش .-5-

1-محمد سعيد ومصطفى خلف عبد الواحد ، علم اجتماع الادب، دار المسيرة ط1، 2009ص74.

2- ميجان الرويلي وسعد البازعي ، دليل الناقد الادبي ، المركز الثقافي ، الدار البيضاء ط3، ص324.

3- شكري عزيز ماضي ، نظرية الادب ، دار المنتخب للدراسات والنشر والتوزيع ط1، بيروت 1993ص83.

4- ينظر المرجع نفسه ، ص83.

تشكلت نظرية ماركسية حول الادب ، في القرن العشرين مع جورج بليخانوف ( 1856- 1918 ) ، الذي راح ينظر إلى الادب في علاقته غير المنفصلة عن حياة المجتمع وفي حلفية العناصر التاريخية والاجتماعية التي تؤثر في الادب ، كما رفض تفسير الادب بكونه منعزلاومستقلا ، فالادب هو ظاهرة اجتماعية .

يرجع الفضل إلى هذا المفكر الروسي ، والمنظر الماركسي في إرساء معالم علم جمال ماركسي ، فقد سعى إلى ربط مسائل علم الجمال بالمبادئ الاشتراكية وألح على أهمية المضمون ، ونقده يتأرجح بين التفسير السوسيولوجي والتفسير الجمالي .

يؤكد بليخانوف غلى أن أول ما ينبغي للناقد أن يبحث عنه في العمل الادبي هو المدلول الاجتماعي ، فالادب حسب رأيه غني بالمضمون الاجتماعي ويمكن من تحديد ما يسميه المعادل السوسيولوجي للظاهرة الادبية يقول " بصفتي نصيرا للتصور المادي للعالم سأقول إن الواجب الأول للناقد يكمن في ترجمة فكرة ذلك النتاج من لغة الفن إلى لغة علم الاجتماع في تحديد ما يمكن أن نسميه المعادل السوسيولوجي للظاهرة الادبية المعطاة " .1

من الواضح أن ما يهم بليخانوف في العملية النقدية هو المعادل السوسيولوجي الذي يفسر ارتباط الادب بالقضايا الاجتماعية ، لذلك يلح عليه كثيرا . لكن ذلك لا يعني انه لا يهتم الجانب الجمالي ، إنه يؤكد على الربط بين الجانبين الاجتماعي والجمالي ، لكونهما ضرورين لأية محاولة نقدية تهدف إلى تحليل وتقييم الاعمال الادبية .

يرى بليخانوف أن مهمة النقد الادبي تتمثل في إدراك عناصر الوعي الاجتماعي والطبقي : " إن كل إيديولوجيا بما فيها الفن ، وما يسمى الآداب الجميلة ، إنما تعبر عن الميول والاحوال النفسية لمجتمع بعينه ، على أن الناقد الادبي الذي يحاولتحليل أثر ما ، ملزم قبل كل شيئ ، أن يدرك أن العنصر المعبر عنه في هذا الأثر من عناصر الوعي الاجتماعي أو الطبقي " -2-.

وإذا كان بليخانوف قد عمد إلى إقامة نقده على الربط بين الجانبين الاجتماعي والجمالي ، فإنه قدم الجانب الاجتماعي على الجانب الجمالي حيث يأتي الأخير في المرتبة الثانية وهو خطوة مكملة للبحث النقدي الايديولوجي . 3

إن النص الادبي عنده وإن كان يعكس مضمونا اجتماعيا فإنه لا يخلو من صبغة ايديولوجية ، لذلك يرى " أن اكتشاف الرؤية الايديولوجية للكاتب هي أول شيء ينبغي أن يؤديه الناقد وتبقى المهمة الثانية هي تقييم الجانب الجمالي " .

لقد عني النقد الماركسي وعند بليخانوف بالتحديد باستلهام المضمون الاجتماعي للاعمال الادبية ، والجمع بين الجانب الاجتماعي والجمالي دون إغفال الجانب الايديولوجي .إن النقطة الجوهرية في النقد الماركسي ، هي تحديد ماتعكسه الآداب والفنون عن مجتمعها ، مايدل على أن نظرية الانعكاس أحكمت قبضتها على الممارسة النقدية .

1-جورج بليخانوف ، الفن والتصوير المادي للتاريخ ، ترجمة جورج طرابيشي ، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ط1، 1977ص159.

2- المرجع نفسه ، ص59 .

3- المرجع نفسه ، ص53.

4- انورعبد الحميد الموسى ، علم اجتماع الادب منهج سوسيولوجي في القراءة والنقد ، ص117.